التصـــــاوير والتماثيل
فى الحضارة الاسلامية
التصوير فى الكتب
لأستاذ جليل

التصوير فى (الحضارة الإسلامية) فى الحجر والكتاب — كثير . وإذا جدّ واستمر بحثُ النابشين وتنقيب المفتشين ظهرت نفائس مضمرات ، وبدت بدائع مكنونات ، وعرف الناس من آثار تلك المدنية المحمدية ما لم يكونوا قد عرفوه

وإن (كتاب الله) لم يذمم فى آية من آياته تحسيناً ولا تجميلاً ، ولم يحرّم تصويراً ولا تشكيلاً . وهل الخط أو التسطير إلا تدبيج وتصوير ؟ وهل الكتابة أصلها إلا صور ؟ وهذه قصور المروانية والعباسية — والقوم حماة الدين وخلفاء المسلمين — فيها الأشكال والتهاويل[1]

« من كل شىء يُرى فيها تماثيل[2] »

وقد زار مسلم عربى منذ أشهر قصر هشام بن عبد الملك الذى كشفه المنقبون فى ناحية أريحاء من أعمال فلسطين[3] فى السنة الماضية فشاهد صوراً فاتنة لوجوه أناس عرب فى بقايا الغرف والجدران

قلتُ يوما لدار قوم تفانوا أين سكانك العزاز علينا
فأجابت : هنا أقاموا قليلا ثم ساروا ، ولست أعلم أينا[4]

(١) التهاويل : زينة التصاوير والنقوش والوشى ، واحدها تهويل . والتهاويل الألوان المختلفة من الأصفر والأحمر . (اللسان) . هولت المرأة بحليها وزينتها إذا راعت الناظر إليها (الفائق)

(٢) عبدة بن الطيب ، وصدر البيت (فيها الدجاج وفيها الأسد مخدرة) قال الأنبارى : فيها الأسد مصورة . ويروى فيها الذئاب ، وبعد البيت :

فى كعبة شادها بان وزينها فيها ذبال يضىء الليل مفتول

(٣) فلسطين من أجناد الشام فى النهاية : « الشام خمسة أجناد : فلسطين والأردن ، ودمشق ، وحمص ، وقنسرين ، كل واحد منها كان يسمى جنداً أى المقيمين بها من المسلمين المقاتلين » والشام من غزة إلى الفرات طولا . وقد مزق المغيرون هذا الاقليم العربى الصغير أى تمزيق ! مزق الله ملكهم !

(٤) تفانى القوم أفنى بعضهم بعضاً . ومراده فنوا (العزاز) من جمع العزيز فى (المطمح) للفتح : وللوزير جهور بن محمد بن جهور وقد وقف على قصور الأمويين (فى الأندلس) وقد تفوضت ابنيتها ، وعوضت من أنيسها بالوحوش أفنيتها : قلت يوماً إلخ

وكان فى رفاقته أحد معارفه فقال مستعجبا : ماهذا ؟ خليفة مسلمين ، وأمام دين ، وصور وتماثيل ! !

فقال المسلم العربى مفاكها مازحا : لم يكن (المحرّم) قد نجم ودُوِّنت كتبه فى أيام هشام ... [1]

وجاء فى تاريخ بغداد لابن الخطيب فى وصف دار الخلافة : [2]

« وفيها — أى دار الشجرة [3] فى دار الخلافة — شجرة فى وسط بركة كبيرة مدورة ، فيها ماء صاف ، وللشجرة ثمانية عشر غصنا ، لكل غصن منها شاخات كثيرة [4] ، عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة ، وأكثر قضبان الشجرة فضة ، وبعضها ذهب ، وهى تمايل فى أوقات ، ولها ورق مختلف الألوان يتحرك كما تحرك الريح ورق الشجر ، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر . وفى جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارسا على خمسة عشر فرسا قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفى أيديهم [5] مطارد على رماح يدورون على خط واحد فى (الناورد) [6] خببا وتقريباً [7] فيظن أن كل واحد إلى صاحبه قاصد ، وفى الجانب الأيسر مثل ذلك »

وذكر ابن أبى الحديد فى (شرح النهج) الكبير : « إنه كان على سيف عضد الدولة بن بويه وأبيه ركن الدولة صورة على (رضي الله عنه) ، وكان على سيف ألب أرسلان وابنه ملكشاه صورته »

وروى صاحب (النفح) عن بدر الدين بن الحسن الأربلى المتطبب وصف تصاوير فى حمام رآه فى بغداد فى (دار الملك شرف

(١) استخلف هشام — كما قال الطبرى — سنة (١٠٥) وتوفى سنة (١٢٥)

(٢) أبو نصر خواشاذة خازن عضد الدولة قال : طفت دار الخلافة عامرها وخرابها وحريمها وما يجاورها فكان ذلك مثل مدينة شيراز (تاريخ بغداد)

(٣) كانت شجرة من الفضة وزنها (٥٠٠) ألف درهم ، عليها أطيار مصوغة من الفضة تصفر بحركات قد جعلت لها (تاريخ بغداد)

(٤) شاخات : رفارف

(٥) المطرد من الرمح ما بين الجبة إلى العالية ، والجبة من السنان ما دخل فيه الرمح

(٦) ناورد : لفظ فارسى وهو فى لغتهم بمعنى القتال ، وجولان الخيل فى الميدان ، وفى اللغة الجديدة ناورد جنك ، وجولان اسب . وبالمعنى الثانى استعمله المولدون وغيرهم (شفاء الغليل)

(٧) الخبب : السرعة وقيل هو مثل الرمل ، ورمل هرول ، والتقريب العدو دون الاسراع ، قرب الفرس إذا رفع يديه معاً ووضعهما معاً

الدين هرون بن أمازير الصاحب شمس الدين محمد الجويني) تُدهش مبصريها ، وتعجز واصفيها ، وقد يجد الفتيان الشُطّار والمتفننون من رجال الليل مايشبهها اليوم فى بيوت في (باريس) .. وربما لايجدون . وهى الحضارة ، وهو التفنن فيها ... وهذا ماتسهل روايته من وصف الأربلى :

« وأبصرت مياهه وشبابيكه وأنابيبه المتخذ بعضها من فضة مطلية بالذهب وغير مطلية ، وبعضها على هيئة طائر إذا خرج منها الماء صوت بأصوات طيبة . ثم أراني — يعني سائس الحمام — نحو عشر خلوات ، كل خلوة أحسن من صنعة أختها . ثم انتهى بى إلى خلوة عليها باب مقفل بقفل حديد ففتحه ، ودخل بى إلى دهليز طويل ، كله مرخم بالرخام الأبيض الساذج ، وفى صدر الدهليز خلوة مربعة ، ورأيت من العجائب فى هذه الخلوة أن حيطانها الأربعة مصقولة صقالاً لا فرق بينه وبين صقال المرآة ، يرى الإنسان سائر بشرته فى أىّ حائط شاء منها . ورأيت أرضها مصورة بفصوص حمر وصفر وخضر ، ومذهبة ؛ وكلها متخذة من بلور مصبوغ ، بعضه أصفر ، وبعضه أحمر ؛ فأما الأخضر فيقال : إنه حجارة تأتي من الروم ، وأما المذهب فزجاج مليس بالذهب ؛ وتلك الصور فى غاية الحسن والجمال على هيئات مختلفة فى اللون وغيره . وكل محاسن الصور الجميلة مصورة في الحائط »

* * *

وهذا خبر عن مصنَّف مصوَّر فى العلم قد أرصن تأليفه وتصويره أيما إرصان ، وكأنه آخر ماقيل فى أمريكة وأوربة فى توضيح الكتب بالصور . وإنى لأرويه مؤيداً ومساعداً المقالة الجديدة المفيدة : (التصوير التوضيحى فى المخطوطات الإسلامية) التى أطرفها الناس فى (الرسالة) الغراء الأديب المتفنن الدكتور أحمد موسى ، والتى زيّنتْ لى تصوير هذه السطور :

قال ابن أبى أصيبعة فى كتابه : (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) فى سيرة رشيد الدين بن الصوري[1] : « ولرشيد الدين ابن الصورى من الكتب كتاب الأدوية المفردة . وهذا الكتاب بدأ بعمله فى أيام الملك المعظم ، وجعله باسمه واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة ، وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومنافعها ، لم يذكرها المتقدمون . وكان يستصحب مصوِّراً ، ومعه الأصباغ واللّيق[2] على اختلافها وتنوعها ، فكان يتوجه رشيد الدين ابن الصورى إلى المواضع التى بها النبات مثل جبل لبنان وغيره من المواضع التى اختص كل منها بشىء من النبات ، فيشاهد النبات ويحققه ، ويريه للمصور فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصور بحسبها ويجتهد فى محاكاتها . ثم إنه سلك أيضاً فى تصوير النبات مسلكا مفيداً ، وذلك أنه كان يرى النبات للمصور فى إبّان نباته وطراوته فيصوره ، ثم يريه إياه وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك ، ثم يريه إياه وقت ذُوِيّه ويبسه فيصوره ، فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر إليه فى الكتاب وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه به فى الأرض ، فيكون تحقيقه له أتمّ ومعرفته له أبين »

* * *

إنّ التصوير غير الشرْكى وغير المهرى لَمُباح . وإن التصاوير والتماثيل إنما هى تحاسين وتزاين « قُلْ من حرّم زينةَ الله » ، وإذا كان ذلك للهدْى والتذكير والتعليم والتثقيف فقل بالوجوب

القارئ

(١) مولده فى سنة (٥٧٣) وتوفى سنة (٦٣٩) خدم بصناعة الطب الملك العادل أبا بكر بن أيوب ، ثم خدم بعده لولده الملك المعظم عيسى بن أبى بكر ، وشهد معه مصافات عدة مع الفرنج لما نازلوا ثغر دمياط ، ولم يزل معه إلى أن توفى وملك بعده الملك الناصر داود فأجراه على جاريته — جرايته — وولى إليه رياسة الطب الخ (عيون الأنباء)

(٢) الليق — بالكسر — شىء أسود يجعل في الكحل . قال الزمخشرى ، وهو بعض أخلاطه (التاج)

أطلب مؤلفات
الأستاذ النشاشيبي
وكتابه
الإسلام الصحيح
من : مكتبة الوفد ، شارع الفلكى (باب اللوق)
ومن : المكتبات العربية المشهورة